التشيّع والتحوّل في العصر الصفوي
The Rise of Religious Externalism in Safavied Iran

كولن تيرنر
Colin Turner

مراجعة: خليل عبدالرزاق-Reviewed by Khalil Abdelrazik

يعالج "كولن تيرنر" في كتابه "التشيّع والتحوّل في العصر الصفوي" التحوّل المذهبي في إيران عند مؤسسي الدولة الصفوية خاصة، بانتقالهم من المذهب السني إلى المذهب الشيعي.

من المعروف أن الدولة الصفوية أُقيمت عام 1509م/ 914ه، وقُوِّض سلطانها عام1740م/ 1153ه، ولا جدال في أهمية الحقبة التاريخية السياسية للصفويين، التي عالجتها الكتابات العربية بشيء من السطحية، فالصفويون في أصلهم التاريخي جماعة سنية صوفية، استطاعوا السيطرة على إيران وأجزاء من العراق، وأعلنوا بدخولهم مدينة "تبريز" إسماعيل الصفوي حاكمًا (شاهًا) عليهم، واتّخذوا المذهب الشيعي مذهبًا رسميًّا للدولة ولعاصمتهم أصفهان، وبهذا يغطي الكتاب مرحلة تاريخية مهمّة في تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية في إيران والعالم الإسلامي، وذلك على مستويين: الأول: تحوّل مؤسّس الدولة الشاه إسماعيل الصفوي نفسه، من المذهب السُّنّي إلى المذهب الاثني عشري الإمامي، وما لحقه من تحول إيران نفسها من بلد غالبيته من السُّنة إلى بلد شيعي بشكل شبه حصري، والمستوى الثاني: هو التمايزات الجوهرية بين الممارسات الفقهية المذهبية الشيعية، بين ما هو "براني" بحسب وصف المؤلف، وهو المتعلق بالممارسات الظاهرية والتشريعات الفقهية، والمنحى الثاني الذي أسماه "الجواني"، وهو الأكثر ارتباطًا بالممارسات الروحانية والفلسفية.

فالكتاب يعالج تاريخ التفكير الشيعي عند الدولة الصفوية الإيرانية، بالبحث في المقدمات التاريخية للفكر الشيعي، وانتقاله من كونه مذهبًا للفرد إلى مذهب للدولة؛ بالتوازي مع تاريخ الصفويين أنفسهم، لتقديم تبصرة بالتحولات المذهبية وتعلّقها بالحركة السياسية في إيران.

جاءت ترجمة عنوان الكتاب غير موافقة للعنوان الأصلي، وإن وافقت مقصد الكتاب نفسه، فالترجمة الحرفية للعنوان هي: "إسلام بدون الله"، وهي ترجمة تتعارض والذائقة العربية، بل ربما تلقى استهجانًا، وهو ما جعل المؤلف والمترجم يقترحان ترجمة بديلة تتوافق ومقاصد الكتاب وجوهر المعالجة التاريخية التي يقدمها الكتاب للمذهب الشيعي الإمامي، وانتشاره في إيران بوصفه المذهب الرسمي.

يركز الباحث على دراسة ممارستين تاريخيتين في التفكير المذهبي الإسلامي: أوّلهما سماه التشيع "البراني"، ويقابله ما سمّاه التشيع "الجواني"، وهو ثانيهما، ويقصد المؤلف بالتشيع البراني: "العَالم المسلم الذي ركز جهوده الدراسية على العلوم النقليّة، وكان جل اهتمامه منصبًّا على التبحر في الفروع ونشرها، وبالأخص الفقه والحديث"، ويقصد بالتشيع الجواني: "العالم المسلم الذي يركز اهتمامه أساسًا على أصول الإيمان: التوحيد والنبوة والمعاد، وبشكل أخص على اكتساب المعرفة بالله وصفاته، ونشر هذه المعرفة".

ويتوسع الكاتب في بحث العلاقة بين مفهومي الإسلام والإيمان والتفريق بينهما، التي يعدّها "واحدة من أولى المسائل الاعتقادية لدى العلماء المسلمين"، ويقتفي أثر التفريق بينهما في الأدلة القرآنية والأحاديث عند السنة والشيعة والتفاسير القرآنية المختلفة، وهو تفريق ضروري، حيث أسهم التمييز والخلط بينهما في سيطرة الفقيه على الثقافة الإسلامية بحسب ما يرى المؤلف.

ويذهب الكتاب إلى الجمع بين التاريخ الفكري للمذهب الشيعي في إيران وخارجها، والتاريخ السياسي للدولة الصفوية، باستعراض موقع المذهب الشيعي في تنوعاته، مع توسع في المذهب الإمامي، من خلال البحث في تطوراته التاريخية ومراكزه الثقافية الأكثر أهمية وفاعلية، في التاريخ الإسلامي نفسه، مع الحفاظ على التمييز بين "الجواني" و"البراني"، وعلاقة الأفكار الأمامية بالتيار الصوفي الإيراني، ومدارسه المتنوعة والطرق، وكيف تسرب إليها بعض الأفكار الإمامية، التي توزعت ما بين صوفية متطرفة أو مارست الغلو، وتلك كانت شيعية الهوى على حدٍ وصف المؤلف، وصوفية معتدلة أدّت دورًا مهمًا في تجاذب الخطابات داخل الدولة السياسية الصفوية.

ويخلص الكتاب إلى نتيجة مفادها أن التشيع الصفوي الإيراني تشيع براني، اهتم بالشكلي على حساب الروحي والجوهر الإيماني نفسه، وكان المقصد منه تثبيت أركان الدولة الجديدة على حساب نشر المذهب نفسه، بوصفه هدفًا سياسيًّا خالصًا، حيث يجزم أحد المؤرخين أن مذهب الإمامية الشيعي كان مجهولًا نسبيًّا في إيران، وهذا الذي دفع مؤسس الدولة الصفوية الشاه "إسماعيل الصفوي" إلى استقدام فقهاء من جبل عامل بالشام -لبنان حاليًّا-، وهو ما وُصف أو سُمّيَ: "إسلام بدون الله" لاهتمام أصحابه بالبَراني والشكلي، وعلى رأسهم الشيخ "علي الكركي العاملي" المتوفّى عام 940ه. وآخرون، وتأتي شخصية "العلامة المجلسي" النموذج المثالي المعبّر عن فقه الدولة الصفوية، بإغراقه في الشكل على حساب الجوهر، ولهذا تناوله الكاتب بشيء من التفصيل، وأفرد له فصلًا كاملًا يتناول حياته، ومؤلفاته وعلاقتها بالتاريخ العام الذي تنتمي إليه، ودورها في الحركة الفكرية الشيعية للعصر الصفوي في إيران، إذ إن هناك جدلًا حول توليه منصب "الملا باشي"، وهو أكبر منصب يحوزه فقيه في التاريخ الصفوي، وهو رئيس جميع الملالي، وله مكانه المعروف بجانب العرش، ولا يجلس أي من العلماء والسادة أقرب منه إلى محضر الملك، وهو منصب استُحدث بعد تكوّن الدولة ورسوخها، وإن كان مؤلف الكتاب يرى أنه لم يتولَّ المنصب، لأنه استُحدِث بعد وفاته.

ولا شك أن هناك في أي تفكير مذهبي علاقات تجاذب مع ما تطرحه الأدبيات الدينية الأخرى، وهو ما دفع الكاتب إلى البحث في موضوع تلاقي المذهب الشيعي مع المذاهب الإسلامية والأديان الأخرى، فمثلًا بشيء من التقريب تتوافق بشكلٍ جلي فكرة "المخلِّص" المسيحية التي تتعلق بظهور مخلِّص مؤمَّل يظهر في آخر الزمان ليقيم دولة العدل ويقوّض دولة أعداء الله- مع مفهوم ما اصطلح عليه بـ"المهدي المنتظَر" في مذهب الشيعة، هذا بالإضافة إلى معالجة تاريخ "مفهوم الانتظار"؛ أي انتظار "الإمام الغائب" الذي يُعدّ امتحانًا لإيمان الشيعي بتعرضه للبلاء والشقاء حتى يحين ظهوره. وهذا يتعلق بمفهوم "الرجعة"؛ إذن فالكتاب يتعرض لتاريخ المفاهيم الشيعية ومقاصدها.

وللتمييز بين مفهومَي "براني" و" وجواني"، يناقش الكاتب ما طرحه كتاب (التشيع العلوي والتشيع الصفوي) لمؤلفه "علي شريعتي" الذي هاجم فيه ما سمّاه التشيع الصفوي، وعدّ كل تجربة شيعية تهتم بالطقوس والشعائر على حساب التفكير الثوري تجربة صفوية قبالة التفكير الشيعي الثوري الذي يعتمد التفكير والنقد.

جاء الكتاب في 416 صفحة من القطع المتوسط، استوعبت مقدمة المراجع، وتقديمَ المترجم والكاتب، والمنهَج الذي اتبعه المؤلف، وستة فصول: عالج الفصل الأول منها مفهوم الإسلام والإيمان والفارق بينهما في تاريخ التفكير الإسلامي، سواء السني أو

الشيعي، وتناول الفصل الثاني التحولات المذهبية بين السنة والشيعة في إيران في العصر الوسيط قبيل بزوغ الدولة الصفوية، وانتشار التصوف وتنوع ممارساته، وبحث الفصل الثالث ترسيخ المذهب الشيعي على يد السلطة السياسية الصفوية، والممارسات السياسية، وتجاذب الخطابات الشيعية ما بين "براني" و"جواني"، وتقاطع الخطابين السني والشيعي داخل البلاط الصفوي نفسه، ودرس الفصل الرابع شخصية "الإمام المجلسي" التي يراها المؤلف مهمّة في فهم تاريخ الفكر الشيعي والممارسة الشيعية في إيران، بوصفها تجربة برانية، وتناول الفصل الخامس معالجة نقدية تاريخية، لمفهومَي عقيدة الانتظار وعقيدة الرجعة عند الإمامية، بتقصي تاريخ الفكرتين في تاريخ التفكير الشيعي، واختتم الفصل بمقالة نقدية عن التشيع العلوي والتشيع الصفوي، واختار الكاتب عنوان (الخلاصات) للفصل السادس وهو الأخير، وعالج فيه المفاهيم والمصطلحات التي وردت في متن الكتاب.

إن هذا الكتاب يعالج قضية بالغة الأهمية في تاريخ الحضارة والثقافة الإسلامية، وهي التحولات السياسية التي تعتمد التمييز المذهبي، وتتعلق بتاريخ التفكير ما بين سني وشيعي، ما بين داخلي وخارجي داخل المذهب الواحد، كما عالج التحول في الدولة الصفوية، بسبر أغوار تاريخ الحركة الفكرية والسياسية للصفويين، وهي لحظة فارقة في تاريخ إيران، بتحولها من منطقة سنية في التاريخ الحضاري للدولة الإسلامية، لتصبح دولة تعتمد المذهب الشيعي مذهبًا رسميًّا للدولة حتى الآن، فالكتاب مهمّ للباحثين في تاريخ المذاهب الإسلامية، وتاريخ إيران السياسي والحضاري.